رسالة فحولة الشعر للأصمعي
قراءة ثقافية

دكتور/ عصام محمود أحمد
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة حلوان

الفحولة مصطلح عربي من مصطلحات البيئة العربية، فرضته طبيعة العربية على غيره من المصطلحات لما للفحل من أهمية كبيرة في حياة العربي البدوي، ذلك الذي يمثل الفحل فيه القيمة العالية والمكانة التي لا يقترب منها غيره، وسيلته للترحل والانتقال في الصحراء المترامية، قائد للقافلة وزعيمها، وملقح النوق ومنتج الثروة ، ويكتفى منه بواحد وسط عشرات النوق فينتج قطيعا يرفع قدر صاحبه ومكانته ، ولعل في هذا لقاء بين الفحل الشاعر والفحل من الإبل فالشاعر الفحل يتعلم منه الشعراء ويتناقلون عنه مهاراته وموهبته وتعبيراته ،

ورسالة فحولة الشعر الأصمعي(ت٢١٦هـ)[1] من الرسائل العظيمة التي جاءت في مرحلة مبكرة وهي وإن كانت صغيرة الحجم فهي عظيمة القيمة تعد من نوادر الرسائل في عصر مبكر من التدوين حوت تقييمات لكثير من الشعراء، دونها تلميذه أبو حاتم السجستاني(ت٢٤٨هـ) من أجوبة شيخه الأصمعي على أسئلة ألقاها عليه. ثم زاد أبو حاتم في تلك الأجوبة زيادات من عنده، وحذف منها ما شاء، ومن ثم فقد نسب الكتاب إليه كما نسب إلى الأصمعي، وقد فصل السجستاني بين كلامه وكلام الأصمعي فصلا واضحًا ، وتقدم لنا هذه الرسالة جملة من الآراء النقدية التي لم تأت في غيرها من الرسائل، وبخاصة أن للأصمعي رسائل أخرى متنوعة ، لكن هذه الرسالة تفردت في مجموعة ما حوته من آراء نقدية وتعليقات ، وتختلف هذه الرسالة عن غيرها من كتب الأصمعي من حيث الموضوع والآراء؛ فقد جاء كتاب مثل الأصمعيات حاملا مختارات من الشعر العربي اختارها الأصمعي بنفسه، لكنه لم يعلق عليها، ولم يذكر علة اختياره هذه النصوص دون غيرها، فجاء الكتاب ناطقا بنفسه دون

شرح ، لكن فحولة الشعر تمنحنا صورة عامة لفكر الأصمعي وتطوره عبر الزمن، كما يمنحنا صورة عامة للنقد في عصره بصورة عامة ، وكيف نظر العلماء للشعر والشعراء في تلك المرحلة المبكرة من الثقافة العربية.

ولاشك ان محاولة قراءة تلك الرسالة تحتاج آلية خاصة تسهم في استجلاء ما وراءها من تجليات نقدية ذلك أن النقد الثقافي هو " فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه"[٢]

(١)

وضع الأصمعي في رسالته هذه الكثير من القواعد التي اعتمد عليها كثير من النقاد الذين جاءوا بعده مثل ابن سلام وابن قتيبة وابن طباطبا العلوي؛ فهو أول من وضع امرأ القيس على رأس الشعراء قاطبة، ونقل عنه ذلك النقاد ومنهم ابن سلاَّم وابن قتيبة، وهو الذي استخدم مصطلح الفحولة علامة على الشعراء العظام ونقله إلى باب النقد وأخذه عنه ابن سلام وجعله عنوان كتابه (طبقات فحول الشعراء)[٣] .

فاستخدام لفظة الفحل للتعظيم في شان الشاعر دارج مستعمل بين الشعراء لم يبتدعه الأصمعي؛ فقد نقل الأصفهاني قول الفرزدق(ت١١٠هـ)" قد علم الناس أني فحل الشعراء وربما أتت علي الساعة لقلع ضرس من أضراسي أهون علي من قول بيت شعر[٤]، وقد سمي علقمة بن عبدة بالفحل لأنه نافح امرأ القيس شعرا وهزمه ثم تزوج زوجته بعد أن طلقها أمرؤ القيس[٥] ، أي أن الفحولة لفظة عامة مستخدمة في مجال الشعر وغيره بيد أن الأصمعي أول من حدده وعرَّفه؛ قال أبو حاتم: قلت فما معنى الفحل؟ قال: يريد أن له مزيّةً على غيره، كمزيّة الفحل على الحقاق[٦].

ويأتي هذا التعريف في مرحلة مبكرة من مراحل الثقافة العربية لذلك جاء بصورة مبسطة عن طريق المقارنة أو التعريف بالاختلاف، فلم يقل ماهي الفحولة ومن هو الشاعر الفحل بصورة واضحة لكنه جعله تقديرا بأن له مزية على غيره .

ونقل عنه ابن منظور قوله: وَرُوِيَ عَنِ الأَصمعي فِي قَوْلِهِ فَحِيلًا: هُوَ الَّذِي يُشْبِهُ الفُحولة فِي عِظَمِ خُلُقِهِ وَنُبْلِه، وقال ابن منظور :"وفُحول الشُّعَرَاءِ: هُمُ الَّذِينَ غَلَبُوا بالهِجاء مَنْ هَاجَاهُمْ مِثْلُ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ وأَشباههما، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ عارَض شَاعِرًا فَغَلَبَ عَلَيْهِ، مِثْلُ عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدَةَ، وَكَانَ يُسَمَّى فَحْلًا لأَنه عَارَضَ امرأَ الْقَيْسِ "[٧]، ويحدد

ابن منظور في تعريفه فئتين فقط من الشعراء يلقبان بالفحل ؛ شعراء الهجاء، والمعارضات الشعرية ، وهو تخصيص لم يقل به أحد من قبله بل إن الأصمعي يرى أن الهجاء يفسد الشعر كما حدث مع مزرد أخو الشماخ فقال" قلت: فمزرّد أخوه؟ قال: ليس بدون الشماخ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس فالشماخ فحل، وكاد أخوه مزرد أن يكون مثله لولا اعتماده الهجاء في شعره.

وقد استخدم الأصمعي مصطلحي الفحولة والحقاق[٨] منقولا من بيئته العربية الواضحة، تلك البيئة الصحراوية التي تقدر الفحل وتضعه في مكانة لا يقترب منها أي حيوان آخر، ومع قيمة حيوانات أخرى في الصحراء بيد أنها لا تعادل قيمة الإبل عندهم –إلى بيئة النقد وفي هذا إعلاء واضح من قيمة الشعر ومكانته، فإذا كانت البيئة العربية لا يمكنها أن تستغنى عن الإبل عامة والفحل بصفة خاصة فكذلك لا غنى لهم عن الشاعر المجيد الذي له مزية على غيره.

ولا شك أن هناك قواعد خاصة وأسسًا تسهم في بناء الشاعر حتى يصير فحلا بخلاف الموهبة الشعرية وتظهر عبقرية عقلية الأصمعي النقدية في الوقوف على هذه الدقائق وقال الأصمعي: لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ. وأول ذلك أنه يعلم العروض؛ ليكون ميزاناً له على قوله؛ والنحو؛ ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه؛ والنسب وأيام الناس؛ ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم"[٩] فلم تتفصل القواعد التي وضعها الأصمعي للشاعر حتى يصير فحلا عن ثقافة الشعر من رواية وأخبار ومعرفة المعاني والخبر بالألفاظ ومعرفة العروض والنحو وتاريخ العرب وأنسابها وهي كلها ثقافة عربية محضة وافقه عليها ابن طباطبا العلوي واستمدها منه ونص عليها في عياره بقوله "التوسع في علم اللغة، والبراعة في الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام العرب وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه...."([١٠]).

وأمثلة لسنن العرب المستعملة بينها، التي لا تفهم معانيها إلا سماعا، كإمساك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها. وفي هذا المعنى:

من كان مسرورا بمقتل مالك فـليأت نسوتـنا بوجه نـهـار(*)

يجـد الـنـساء حواسـر يندبنه يلطمن أوجـهـهن بالأسحار
قد كـن يكـنن الوجـوه تـسترا فالآن حـين برزن للنظار"(١١)

أما الحقاق فهو كما عرفه ابن منظور "ابن الناقة الذي بلغ واستحق أن يحمل عليه" وفي هذا دلالة واضحة على أنه لا يقارن الشاعر العظيم(الفحل) بشخص عادي أو شاعر مبتديء في الشعر وإنما يقارنه بشاعر بالغ جاوز المراحل الأولى للشعر ووصل إلى درجة جعلته مستحقا لأداء وظيفته الشعرية، وأن ياخذ مكانه بين الشعراء ليؤدي وظيفته ومع هذا فهو دون الفحل .

يمنح هذا الاستخدام المصطلحي بعدا ثقافيا واضحا في أصول الشعر العربـي ويرده إلى الصحراء العربية فلا يمكن الاستغناء عنه كما لا يمكن الاستغناء عن الإبل . فيبدو أثر البيئة واضحا في التغليب الذكوري للمصطلح (الفحولـة) الفَحْـل مَعْـرُوفٌ: الذكَر مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ"[١٢] ، واستخدمها زهير في موضع المديح الذكوري فقال:

الطويل

إلى مَعشَرٍ لَم يورِثِ اللُؤمَ جَدُّهُم أَصاغِرَهُم وكُلُّ فَحلٍ لَهُ نَجلُ

فالبيئة العربية بيئة ذكورية يسيطر التغليب الذكوري عليها في كافـة مظـاهر حياتها، وتأتي صفة المذكر فيها للمدح للمذكر والمؤنث على حد سـواء، بينمـا تكـون صفة الأنثى للذكر ذما واضحا ، وجاء مصطلح الفحل شعريا في تأكيد واضـح لهـذه الظاهرة اللغوية الواضحة، ويجوز في الحقاق التأنيث والغالب فيه الذكورة وبـصورة عامة فإن الفارق واضح بين الفحل والحقاق.

(٢)

مثل الشاعر عدي بن زيد نقطة مهمة في نقد الأصمعي إذ لم يكتف بنفي الفحولة عنه وإنما تعداه إلى نفي الشعرية التامة، وقوله فيه من أعجب النقد "قلت: فعدى بن زيد، أفحل هو؟ قال: ليس بفحل ولا أنثى[١٣]. فقد سأله أبو حاتم عن رأيه في عدي بن زيد، وكان رد الأصمعي صادمًا إذ المعتاد منه أن يجيب بكلمة أو اثنتين ؛ فحل أو ليس بفحل، ولكنه مع عدي أضاف جملة وليس بأنثى، وهي مقولة غريبة منه فالفحل عنده نقيض الأنثى في هذه العبارة بصورة مباشرة، إذ الفحل في الغالب عنده نقيض الحقاق في الشعر ، والناظر المدقق في هذا التعليق يجد أن الأصمعي قدجاء برأي نقدي شديد الرقي والفهم فنعوت الشعر العربي لا تخرج عن قسمين رئيسين الفخر والغزل ،

والفخر يلزم المديح الذاتي والغيري، وله من صفات القوة الملازمة للفحولة بما تحمله من حماسة وتحفيز وتسامي ، والغزل وفيه شعر النسيب والرقة والعاطفة القوية مايلزم ووصف المحبوبة بالجمال والرقة ، وعندما ياتي الشعر خاليا من عنصري القوة والرقة يكون قد فقد شاعريته وأضحى بلا قيمة فنية فيقف على تخوم الشعر إذا ليس الشعر إلا القوة أو الرقة وقد فقدهما؛ ففارق الشعر من هنا جاءت مقولة الأصمعي معبرة عن وعي تام بالمعنى الحقيقي لمفهوم الشعر العربي ، وقد سعى ابن سلام إلى تفسير موقف عدي الشعري بقوله" وعدى بن زيد كَانَ يسكن الْحيرَة ويراكن الرِّيف فلَان لِسَانه وَسَهل مَنْطِقه فَحمل عَلَيْهِ شيء كثير وتخليصه شَدِيد، اضطرب فِيهِ خلف الْأَحْمَر وخلط فِيهِ الْمفضل فَأَكْثر"[١٤] فأكد على ليونة شعره وسهولة منطقة التي لا تستقيم مع طبيعة الشعر العربي وإن أرجع ذلك إلى عوامل البيئة التي تؤثر في الشاعر ،كما اكد على أن ذلك غالبا لا يرجع إلى عدي بن زيد ذاته ولا شعره وإنما جعل الدور الرئيس في ذلك للرواة الوضاعين في دفاع واضح عن عدي بن زيد الذي وضعه في الطبقة السابعة من الإسلاميين مخالف بذلك موقف الأصمعي منه.

ومما يؤكد هذه الرؤية ما نقله ابن قتيبة وصاحب الأغاني بقوله: وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم يعارضها ولا يجري معها مجراها "[١٥] وفي هذا تفصيل لرأيه المجمل السابق" وسهيل عند العرب كوكب يرى في أماكن ولا يرى في أخرى وهو مسخ من الكواكب وليس كوكبا عاديا" [١٦] ، وقد نسب ابن قتيبة المقولة السابقة لأبي عبيدة ولم ينسبها للأصمعي [١٧]، وقال أبوعبيدة : " والعرب لا تروى شعره، لأنّ ألفاظه ليست بنجديّة،"[١٨] ، فهل السبب في عدم رواية شعره عند العرب هو أن ألفاظه ليست نجدية ، أم أن هناك أسبابا أخرى لم يصرح بها أبو عبيدة، ولعله لم يكن يدركها كما أدركها الأصمعي، لعل الأصمعي كان أدق في هذه النقطة من أبي عبيدة في أن شعره يخلو من القوة والرقة فصعب على الحفظ والرواية، وأكاد أجزم بأن الجملة الثانية قالها الأصمعي واختلط الأمر على ابن قتيبة فلم يحدد صاحبها فنسبها إلى الأصمعي وأبي عبيدة؛ إذ هي تاكيد لجملة الأصمعي فهو يتشابه مع الشعراء لكنه ليس منهم . يؤكد هذا الرأي رأيه في ذي الرمة "قال: وذو الرمة حجة، لأنه بدوي، ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب" فجملته واضحة في أن شعر ذي الرمة لا يشبه شعر العرب، كما لا يشبه شعر عدي بن زيد

شعر الشعراء لكن عدي تفرد بصفة خاصة لم يقولها في ذي الرمة رغم التشابه الشكلي في الرأي بين الشاعرين في ان كل منهما يسير مسير الشعراء ولا يشبهم.

أما موقفه من عدي فله خصوصية إذ نفى عنه الفحولة والأنثوية في جملة واحدة، ولا يتبقى أمام المتلقي سوى المعنى الثالث وهو الخنوثة، وهي جملة تحمل هجاء شديدًا في مجتمع ذكوري يعتد بفحولة الرجل، ويرق في نسيب الأنثى، والاتهام بالخنوثة في الشعر اتهام شديد وجهه يوما عبد الملك بن مروان إلى عبيد الله بن قيس الرقيات عندما أنشد قائلا:

[الكامل]

إنَّ الحَوَادثَ بالمَدينَة قَدْ أَوْجَعْنَني وقَرَعْنَ مَرْوَتَيَهْ[١٩]

وجَبَبْنَنى جَبَّ السِّنام ولم يَتْرُكْنَ رِيشاً في مَناكِبِيَهْ

فقال له: أحسنت لولا أنك خنثت في قوافيه! فقال: ما عدوت كتاب الله {مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ "[٢٠]، فجاءت المخانثة هنا لفظية في هاء السكت الساكنة التي اعتمدها عبيد الله في قافية في قصيدته والعداوة شديدة الوضوح بين ابن الرقيات وعبد الملك بسبب نصرة الشاعر لمصعب بن الزبير والأخبار في ذلك كثيرة، ولولا تدخل كثير من الناس تشفعا له لقتله عبد الملك ، ولذلك فكثيرا ما هاجم شعره ونقده وكان شديد الهجوم على قصيدته باتهام مفزع هو الخنوثة الشعرية، ولم يكن المجتمع العربي يتقبل هذا الاتهام الشديد والطعن في الفحولة حتى لو كان شعريا، والأصمعي يعي هذا جيدا واتهامه لعدي واضح بالخنوثة الذي جاء شبه صريح ، والقارئ المدقق لشعر عدي يجب عليه التعجب إذ جاء دبوانه خاليا من تلك القافية (هاء) السكت أو القافية اللينة كما أطلق عليها علي بن ظافر[٢١]، فالخنوثة هنا في طبيعة الشعر ذاته وليس الجانب الشكلي منه.

ولم يذكر الأصمعي النساء سوى مرة واحدة على الرغم من المدة الزمنية التي كتب فيها السجستاني كتابه هذا" قال الأصمعي يوما: أشَعَرتَ أن ليلى. أشعر من الخنساء؟"[٢٢]، فكان سؤاله عن المفاضلة بين شاعرتين وفضل شاعرة على أخرى ولم يدخلهما في المفاضلة الشعرية العامة بين الشعراء، ولم يذكر أو يلمح إلى فكرة الفحولة على أي منهما وإنما تكلم عن المفاضلة الشعرية فحسب، فاللفظة خاصة بالذكر سواء

كانت فحولة بمعناها الحقيقي أو الشعري، ومما لا شك فيه أن الأصمعي لو كان هو مؤلف الكتاب وحده ما تعرض للشواعر فيه.

(٣)

يختلف النقد الشفاهي عن النقد المكتوب اختلافا واضحا يرجع في الأساس إلى طبيعة اللغة الشفاهية واللغة المكتوبة؛ فاللغة الشفاهية يعروها النسيان والزيادة والنقص وتنوع الآراء إلى حد قد يصل إلى التعارض الواضح؛ فـ"يعطي السرد سيولة مع التفريغ التحليلي للجمل القائم على المحاجة العقلية التي تتميز بها الكتابة، فالبنيات الشفاهية تحقق غالبا ما هو عملي، أما البنيات الكتابية فأكثر اهتمامًا بالتركيب"[٢٣] ويبلغ هذا التشاكل مداه في التلقي أيضا، ذلك أن آليات التفاعل مع النص المكتوب تختلف تماما عنها في الكلام المنطوق؛ بما يحوي الصوت الجذاب من حرارة التعبير والتفاعل الصوتي اللذين يمنحان الكلام رونقا، فضلا عن الهالة الموجودة حول صاحب الصوت التي تجعلك تقف على الإيجابيات في الكلام المنقول ولا تلتفت إلى السلبيات الموجودة ، وهذا أول ما يميز الكلام الشفاهي عن النص المكتوب، وهذا النص جدير بالوقوف عليه ودراسة سماته لما فيه من آراء عظيمة لناقد ولغوي يشار إليه بالبنان وفي مرحلة مبكرة من مراحل التدوين ، وهنا الوقفة الأولى حول المؤلف الحقيقي لها، هي تحوي آراء الأصمعي في موضوع الفحولة، بيد أن الكاتب لها هو أبو حاتم السجستاني[٢٤]، لكن الأصمعي لم يكتبها ولم يملها وكان أبو حاتم يدون آراء الأصمعي دون أن يخبره حتى فوجئ الأصمعي به يوما يكتب كلامه فبدأ يغير في طريقة الحديث " قال أبو حاتم: فلما رآني أكتب كلامه فكر ثم قال" وهذا يبين الوعي التام لدى الأصمعي للفارق الشديد بين الكلام المنطوق والنص المكتوب، وكلاهما حجة عند العرب فكانت العرب تنقل القرآن والحديث وكلام العلماء رواية حتى جاء عصر التدوين ، ومع التدوين استمرت للرواية الشفوية مكانتها حتى أن علماء الحديث يفضلون الحديث المروي عن الحديث المكتوب، ورفعت رواية الحديث عند البخاري الشفاهي من مكانته لأخذه به ورفضه للحديث المكتوب عن صحفي كما كان يفعل مسلم لرفضه قبول الحديث ، إذ انه حرص على تطبيق هذا المنهج في النقل "قال أبو حاتم: حدثنا الأصمعي قال: حدثنا شيخ من أهل نجد" فذكر الأصمعي مصدره وأكمل أبو حاتم فيما يعرف بسلسلة الرواة أو السند وهو مذهب علمي دقيق مستمد من طبيعة العصر الذي كان يهتم بالرواة في

علوم العربية ويدقق فيه حتى في الرواية عن الشعر والأخبار ، فكان كلام الأصمعي حجة منطوقا أو مكتوبا,

وقد سعى أبو حاتم لفصل كلامه عن كلام الأصمعي في الرسالة في صورة واضحة برزت في أكثر من موضع ففي حديث الأصمعي عن الطائي يقول: "قلت: فحاتم الطائي؟ قال: حاتم إنما يعد بكريم، ولم يقل إنه فحل ، وكذلك عن لبيد قلت: فلبيد بن ربيعة ? قال: ليس بفحل، وقال لي مرة أخرى: كان رجلا صالحا، كأنه ينفي عنه جودة الشعر، وقال لي مرة: شعر لبيد كأنه طيلسان طبري، يعني أنه جيد الصنعة، وليست له حلاوة"[٢٥] ، وقد استخدم أبو حاتم الجملة الاعتراضية (ولم يقل– كأنه–يعني أنه) في فصل واضح وتفسير لتأكيده على المعنى المستنبط من رد الأصمعي، وهي صورة متكررة في أسلوب أبي حاتم أن يفسر كلام الأصمعي بقوله (يعني) وهو يفصل في النص بين كلام الأصمعي بنصه وما فهمه من كلامه ، فمثلا تعليقه السابق على شعر لبيد بدا أن الأصمعي فصل تماما بين جودة الطبع الشعري وحسن الصنعة ، فالصنعة خالية من الروح الشعرية وإن كان اللفظ جيدًا ، والواضح في أبي حاتم أمانته الشديدة في النقل فقوله يعني بلاشك يدل على معناه الحقيقي فالأصمعي لم يصرح به مباشرة ولكن أبا حاتم فهمه منه وإلا ما قال يقصد أو يعني ، فهذا الرأي وإن كان اللفظ لأبي حاتم فالمعنى للأصمعي بلاشك ولعل هذا النقد يحيلنا إلى القسم الثاني من أقسام الشعر عند ابن قتيبة وضربٌ منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى"[٢٦]، فهل كانت رسالة فحولة الشعراء من المصادر التي استقى منها ابن قتيبة مادته؟ لقد استعان ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء بآراء الأصمعي في مواضع كثيرة ، وذكر اسمه فيه أكثر من ٣٠٠ مرة ناقلا عنه ومستعينا برأيه ومناقشا له مما يوضح تأثره الشديد به ، ويبدو كلام الأصمعي واضحًا في الفصل التام بين الشعر والأخلاق ، وقد فطن السجستاني إلى هذا الأمر فأكد عليه.

ولا يكتفي أبو حاتم بموقف الناقل والمفسر بل يتجاوزه أحيانا بالبيان والتوضيح بصورة جلية لينتقل إلى النقد المعلل "قال: وأخبرني الأصمعي قبل هذا أن أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحدا، قال: وكان خلف لا يقدم عليه أحدا، قال أبو حاتم: لأنه قال في كل عروض، وركبَ كل قافية" فقد نقل نص الأصمعي والخبر عنه في تفضل أهل الكوفة للأصمعي ثم ذكر موقف خلف في الأمر نفسه، وقدم من عنده تفسيرا نقديا

واضحا لهذه الآراء، وهو تنوع شعره وغزارته، بحيث صار عنده سليقة ؛ فالشاعر المجيد من تنقل في عروض الشعر وقوافيه، وتظهر لنا الدراسة الإحصائية لديوان الأعشى أنه قال إحدى وثمانين قصيدة شعرية في عشرة بحور شعرية متنوعة بين البحور الصافية والمركبة، وظهر فيه التنوع الذي يؤكد أصالة الموهبة الفنية عنده، وهذا ما لا تجده كثيرا في عامة الشعراء، ولم يذكر أبو حاتم هنا لفظة (يعني أو يقصد) كما اعتاد في تفسيره لكلام الأصمعي بما يعني أن هذا التعليل من عنده مباشرة وليس من كلام الأصمعي لفظا أو معنى .

حقا تميز أبو حاتم بالأمانة في النقل وفسر ما قد يحدث لبسا لدى المتلقي، فكانت رسالة أبي حاتم هنا تفسيرية توضيحية لكلام الأصمعي مع التدخل بالشرح والتعليق الفني المعلل وليست مجرد نقل آراءه عنه. إذن فالرسالة تحوي كلام الأصمعي وتعليقات أبي حاتم ممتزجة ومتفرقة ويمكن فصل كل رأي على حدة، والأجدر بها أن تنسب لهما معا .

والباحث المدقق في هذه الرسالة يجد الفارق واضحا بين الكلام الشفاهي للأصمعي والنص المكتوب لأبي حاتم ففي أولية الشعر على الشعراء نجد له آراء متنوعة مختلفة باختلاف الزمن والمراحل العمرية "سمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب غير مرة يفضل النابغة الذبياني على سائر شعراء الجاهلية، وسألته آخر ما سألته قبيل موته: من أول الفحول؟ قال: النابغة الذبياني .. ثم قال: ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئ القيس:

وقاهم جدهم ببنى أبيهم ... وبالأشقَين ما كان العِقابُ

قال أبو حاتم: فلما رآني أكتب كلامه فكر ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس، له الخطوَة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه .. وكأنه جعل النابغة الذبياني من الفحول.

فقد فَضَّلَ النابغةَ على الشعراء الجاهليين، ومن ثم كل الشعراء عامة، ثم غير رأيه في أواخر حياته، وانحاز إلى امرئ القيس وكان متأرجحا بين الرأيين بدليل أنه سعى إلى الاقناع عندما شاهد أبا حاتم يكتب عنه كان بداية يقدم الرأي دون تعليل ولكنه عندما تحول إلى نص مكتوب وجد أنه بحاجة إلى تدعيم رأيه وتأكيده مستخدما حرف العطف(بل)، فجاء الكلام بالمدح بما يشبه الذم ، إذ استخدم بل بعد ان أخبر عن أولية

امرئ القيس ثم بدا وكأنه عدل عن رأيه لكنه أكده ودعمه في إيهام واضح للقارئ . خاصة وان له موقفا غريبا من النابغة وزهير فالنابغة المفضل عنده بعد امرئ القيس أو قبله على خلاف تغير رأيه لكنه أخرج زهيرا من الفحول فقال:" قلت: فزهير بن أبي سلمى قال: اختلف فيه وفيهما .. ثم قال: لا" إذن فهو يفضل النابغة على كل الشعراء عدا امرئ القيس لكنه يجتمع مع زهير في انتمائهما لمدرسة وهي مدرسة عبيد الشعر يقول ابن رشيق" وكان الأصمعي يقول: زهير والنابغة من عبيد الشعر، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما"[٢٧]، إن النسق الثقافي الذي انطلق منه الأصمعي ينبع من تلاقي ثقافات تفاعلات في تأسيس البنى الفكرية التي أسهمت في بناء شخصيته الأدبية النقدية ، فهو ابن بيئة حضارية هي بيئة العراق التي ازدهرت فيها الحركة الثقافية في الكتابة والتدوين والمجالس الأدبية ، ومع ذلك فقد فاضل الأصمعي بين الفحول معتمدا على عوامل ثقافية متنوعة فلقد جمع زهيرا والنابغة في حكم واحد وأفرد امرأ القيس بالتقدمة على الفحول لما في شعره من طبع وغزارة؛ فهو أول من أوقف واستوقف وأبكى واستبكى في بيت واحد وقيد الأوابد ، وكان شعره منسابا دون إعداد مسبق وهو ما أخر مدرسة عبيد الشعر عن تلك التقدمة لما امتلكته من وقت في تنقيح الشعر وتهذيبه ، وهذا لم يقلل من قيمته وإنما رفع من سبق ولم يتأخر . لقد صار خلاف حول الطبع والصنعة ومفاهيمها في المراحل الأولى من النقد ، وهو مال لم يتعرض له ، وقد كان اهتمام امرئ القيس بالبيئة الثقافية واضحا في وصفه للطبيعة وما فيها من حيوانات وصحراء وأسماء أماكن ، بينما كان جل اهتمام زهير بالمثل السائر والحكمة البليغة التي تصير مع الوقت أنموذجًا ويبدو معها درجة الصنعة ، وقس على ذلك في النابغة الذي هو ناقد الشعر الجاهلي وفي شعره عقل وحكمة تختلف تماما عن طبع امرئ القيس .

(٤)

يؤكد الواقع الثقافي على مر العصور أن مكانة الشاعر تمنح لعمله قيمة حتى لو كان العمل غير ذي قيمة، وهو ما يعرف (بالعلاقة بين شهرة الشاعر ونوع قصيدته) فقد يقول شاعر قصيدة جيدة ولكنها لا تنال حظها من الشهرة لأن صاحبها غير مشهور بينما لو قالها شاعر آخر مشهور أخذت حقها من الانتشار، وبلغ وعي الأصمعي بهذا الأمر درجة عالية في الفكر، فقال عن قصيدة لبيد "قال الأصمعي: " لو

كانت هذه القصيدة للنابغة الأكبر بلغت كل مبلغ " فالنابغة من الفحول الكبار ولشعره رونق وجمال، وقد اقتربت هذه القصيدة من رونق شعر النابغة إذ لم يربطها بشاعر غيره، ولم تحظ هذه القصيدة بالشهرة التي تستحقها والتي كانت ستنالها بلاشك لو قالها النابغة وهو ما لم يحدث .

ويتلاقي العقاد هنا مع فكرة الأصمعي حول دور شهرة الشاعر في انتشار قصيدته ووصولها إلى درجة عالية من الشهرة لم تكن لتنالها، وقد ناقش العقاد في مقال بعنوان(النشيد) اختيار نشيد شوقي للفوز بالمركز الأول وهو أقل درجة من غيره من الأعمال المقدمة، ووصف أعضاء لجنة التحكيم بأنهم لا يفهمون الشعر ولا طرقه، ولا يملكون عدالة التحكيم اللازمة لمن يحكم في اختيار نشيد، وهم وإن كانوا قد تفوقوا في علوم وثقافة لكنها لا تؤهلهم لنقد الشعر لآن هذا مجال عمل آخر، كما نقد معرفتهم بصاحب النشيد واختياره قبل التحكيم ورفض موقف أحد أعضاء لجنة التحكيم في إعلانه اسم شوقي عندما رفضوا منحه الجائزة، ثم انتقل من نقد اللجنة إلى نقد النشيد نفسه ورفض أسلوبه وكلماته. وقد أتبع العقاد مقاله هذا بمقال بعنوان (النشيد القومي) مدح فيه صاحب المركز الثالث (عبد الرحمن صدقي) وقد عد نقد العقاد لشعر شوقي ثورة في مجال النقد الحديث ،في حين أن الأصمعي قد سبق هذا الفكر بمئات السنين .

إن بناء الفحولة وصفا على الشاعر لهو بناء ضخم له أسس وقواعد وليس بناءً اعتباطيا ، ومن اهم أسسه أن يكون الشاعر بارز الفحولة متكرر الإنتاج الجيد ولم يبرز مرة ثم يخمد شعره بعد ذلك، ولذلك فإن معيار الكثرة والجودة معًا من اهم معايير الفحولة ،وهما دعامتان رئيستان للحكم بالفحولة وضعهما الأصمعي ، فغزارة إنتاج الشاعر وتنوعه وتقلبه في ضروبه وإجادته في مختلف النعوت ،وقد يقصد بالغزارة طول النفس في القصائد، وهو ما يعرف بالمطولات الشعرية ،ومع هذا الطول والتنوع والغزارة فلابد من جودة هذه القصائد القصيرة والطويلة على حد سواء .

ولا يكتفى من الشاعر الفحل قصيدة جيدة أو قصيدتين وهذا الأمر المفهوم بداهة في الوقت الحالي يعد نقدًا ثقافيا منذ مئات السنين لا يقف عليه إلا ناقد واع مثل الأصمعي الذي عد الكثرة في الشعر مع الجودة معيارا للفحولة، ومن ثم رفض أن ينسب عددا من الشعراء للفحولة لقلة شعرهم مع جودة ما قدموه "قلت فالحويدرة؟ قال:

لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلا. .ولو قال ثعلبة بن صعير المازني مثل قصيدته خمسا كان فحلا.. قلت: فمُهَلهِل؟ قال: ليس بفحل، ولو كان قال مثل قوله:

" **أَلَيلَتَنا بذي جشم أنيرى؟**[٢٨]

كان أفحلهم"[٢٩] .

فالإتيان بقصيدة جيدة واحدة غير كاف في المجمل لمنحه لقب الفحولة ، وإن حافظ الشاعر على مكانته بين الكبار لكن الاستمرار على المستوى الجيد شرط رئيس للفحولة؛ وقد جعل إنشاء ستة قصائد جيدة على المستوى نفسه للقصيدة الأولى التي ابتدأها أو يمكن تسميتها النموذج شرطًا واجبا لمنح هذا الشاعر لقب الفحولة؛ إذ سيكون المعتاد عنده الشعر الجيد، فطبعه الشعري ينتج شعرا جيدا في مجمله ولم يكن وليد الصدفة، وبالطبع فالأمر قد انتهى إذا الشاعر مات منذ سنوات بعيدة ولن يقدم ولكنه هنا يوضح المعيار الذي بنى عليه حكمه النقدي في عدم القول له بالفحولة فالحكم هنا بعدم الفحولة يتبعه تفسير له .

فالغالب أن يعلل الأصمعي سبب نفي الفحولة قلة الشعر المقدم من الشاعر بأنه كان ينتظر منه خمسًا أو ستًا غيرها على المستوى الفني نفسه، لكنه قد يطلب أكثر من ذلك، كما فعل مع أوس بن غلفاء قلت: فأوس بن غلفاء الهجيمي ? قال: لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول، ولكنه قطع به" فمستوى الشاعر هنا أقل من أن يلحق بالفحول وله قصيدة واحدة مقبولة نوعا ما ولا يمكن أن تقاس بغيرها من القصائد، وهنا سوف يطبق معيار الكثرة إذ لو كانت القصيدة من البدائع لطلب منه خمسًا كما طلب من غيره فقصيدته لا ترقى به لمراتب الفحول، كذلك فأوس هو الشاعر الوحيد الذي استخدم جوابا للشرط مقترنا بالفاء (لو كان... فقطع به) إذ حسم الأمر المحسوم وقطعه تماما فهو من خلال هذا التعليق في أدنى المراتب الشعرية من حيث المعيارين.

ويولي الأصمعي فترات النبوغ والطفرات الشعرية التي يقدمها الشاعر فينتج بعضا من الشعر يصل فيه إلى الغاية ويفوق الفحول قال: " وطفيل عندي في بعض شعره أشعر من امرئ القيس " الأصمعي يقو له، ثم قال: " وقد أخذ طفيل من امرئ القيس شيئا " ومع هذا فطفيل أقل منزلة لأنها ليست غالبة عليه كما أنه نقل في شعره عن امري القيس وبذلك يكون التقدم لمن سبق لا من تبع إذ إن مقياس الجودة والكثرة في قول الشعر شرطًا ضروريًا لفحولة الشاعر وهو ما لم يتحقق للطفيل عامة وإنما

تحقق لأنه برع في لون من ألوان النعوت الشعرية، إذ استوى فيه الشرطان الجودة والكثرة ومن ثم فقد جعل نعت الخيل من الطفيل فحلا" فقال: ولكن طفيل الخيل غاية في النعت، وهو فحل"[٣٠]، فقد أخذ شعر الطفيل حيزا كبيرا من فكر الأصمعي في نعوته وعامة شعره ومكانته، فخرج النقد عنه معللا مبنيا على أسس فنية سليمة . ويظهر النقد الثقافي هنا تلك الثقافة العربية المخبوءة تحت عبارته التي فضل فيها طفيلا على امرئ القيس في بعض شعره ذلك أن التتابع والتوالي في شعر امرئ القيس جعلته يحتل مكانة مميزة في أذهان العامة من الناس يجعل الناس ربما لا تلفت بصورة كافية لأشعار قد تتفوق في بعضها على من هو مشهود له بالتقدمة على غيره ، وقد برع الطفيل في وصف الخيل بيد انه لا يضارع امرئ القيس في وصفه للفرس وتنوع شعره ليشمل أغراضا مختلفة ، ومن ثم فإن للمهشور حكمه وغلبته حتى مع تفوق نوعي لغيره.

فالطفرة عنده في الغالب تتعلق بالشاعر نفسه ومكانته الفنية في الحكم النقدي بيد أنه قد تجاوز عن هذا الشرط مع المهلهل بن أبي ربيعة إذ طلب منه قصيدة واحدة بخلاف قصيدته التي قالها حتى يعده فحلا ، وفي هذا بيان واضح لمكانة المهلهل الشعرية العالية إذ هو أول من هلهل الشعر وشق طريقه للناس من بعده ، كذلك وقف المهلهل موقفا قويا بشعره حول أكذب بيت قالته العرب في مواجهة امرئ القيس في خلاف استمر أكثر من ٦٠٠ عام بعد وفاته، فقد روى ابن أبي الأصبع (ت٦٥٤هـ) قول مهلهل:

[الوافر]

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور[٣١]

وعلق عليه عبد العظيم بن أبي الأصبع قائلا" وقد قيل: إن هذا البيت أكذب بيت قالته العرب، وإن بيت امرئ القيس في صفة النار أقرب منه إلى الحق ([٣٢]) وهو قوله:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

لأن فيه ما يخلص به من الطعن وهو اعترافه ببعد مسافة النار، وأنها لم يدنها إلا النظر العالي، وقالوا: حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، لأن أقوى سمع وأصحه إنما يسمع أعظم صوت من ميل واحد، بشرط حمل الريح ذلك الصوت إلى جهة السامع في الليل عند هدوء الأصوات وسكون الحركات، وحاسة البصر تبصر الجواهر الشفافة،

والأجسام الصقيلة، والأجرام المضيئة من بعد يتجاوز الحد بغير واسطة، ورؤية النيران العظيمة المرتفعة مواقدها للناظر المرتفع مكانه ممكنة من البعد ما لم يمنع من ذلك ضوء النهار، ويحول مخروط ظل الأرض دونها..... فلهذا رجحوا بيت امرئ القيس على بيت مهلهل، وعندي أن بيت مهلهل أقرب إلى الصدق والاستحسان من بيت امرئ القيس على شرطهم، فإنهم شرطوا أن كل كلام تجاوز المتكلم فيه حد المبالغة إلى الإغراق والغلو، واقترن بما يقربه من الإمكان خرج من حد الاستقباح إلى حد الاستحسان، وقد تقدم في بيت مهلهل لولا، وهي من الحروف التي زعموا أن الكلام باقترانه بها يبعد من العيب بتة، وليس في بيت امرئ القيس شيء من ذلك، مع أنه قد صرح في البيت الذي قبله أن النار إنما شبت في وجه النهار، عند رجوع المغيرة، من المغار حيث قال: " تشب لقفال "([٣٣]) ، وضوء النهار يمنع من رؤية النيران والكواكب وجميع الأجرام المضيئة، وهذا القدر يدخل بيت امرئ القيس في باب الاستحالة"([٣٤]) ولاشك أن في هذا التعليل نظر؛ إذ هو في ظني يدخل في باب الغلو الممكن حدوثه لا الاستحالة، فإن سكان الصحراء وبخاصة المناطق العالية يمكنهم رؤية النجوم والأجرام السماوية في وضح النهار، ويستدلون بها على الطريق كما كانوا يتمكنون من رؤية الهلال بالعين المجردة ، وقد اشتهر عن زرقاء اليمامة بصرها الحاد الي ترى به على مسيرة أيام، وكان أدلاء الصحراء يتمتعون ببصر حاد، فلو رجحنا معيار الصدق الثقافي فبيت امرئ القيس في باب المبالغة أقرب للصدق لبعده عن الاستحالة

فقد رجح ابن أبي الأصبع بيت المهلهل على بيت امرئ القيس في باب المبالغة الصادقة، وهذا يؤكد المكانة الشعرية العالية التي بلغها المهلهل على أوليته الشعرية فقد نافس امرأ القيس ورجحه بعض النقاد عليه لذلك انتظر منه الأصمعي قصيدة واحدة أخرى تضعه في باب الفحول.

ولكن لماذا لم يضعه الأصمعي في باب الفحول مع قوة ما وصلنا من شعره يلخص الأصمعي موقفه هذا بقوله "قال: وأكثر شعره محمول عليه"[٣٥] فالموثوق النسب إليه في باب الجودة قصيدة واحدة ويلزمه قصيدة أخرى ، إذ هو على المجمل يثق في قوته الشعرية ومكانته لكنه أيضا لا يملك سوى قصيدة واحدة موثوق النسب إليها بها. ويقترب منه في الفحولة سلامة بن جندل " قال: وسلامة بن جندل لو كان زاد شيئا كان فحلا" فلم يطلب من سلامة بن جندل عددا محددا وإنما أبهم اللفظ(شيئا) فكانه قد اقترب

من الفحول حتى كاد يلحق بهم ، وكأنه يقول لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها .

لكن الأمر يختلف ويظهر بصورة مغايرة مع كعب الغنوي الذي لم يلحق بالفحول إلا في قصيدة واحدة " وسألت الأصمعي عن كعب بن سعد الغنوى، قال: ليس من الفحول إلا في المرثية[٣٦]، فإنه ليس في الدنيا مثلها" فقد نفى الفحولة عن الشاعر بشكل عام وخصها لقصيدة واحدة فالفحولة للقصيدة لا قائلها فهو في عامة شعره ليس بفحل ولذلك لم يطلب منه قصيدة أخرى ولا خمسا ولا عشرين.

ولكن حكمه بتفضيل المرثية ليس الوحيد في هذا النعت إذ هو معجب به مستحل له يراه أفضل أشعار الدنيا، وقد كرر حكمه في مرثية كعب الغنوي في حديثه عن أعشى باهلة "قلت: فأعشى باهلة، أمن الفحول هو؟ قال: نعم، وله مرثية ليس في الدنيا مثلها، وهي:

إني أَتَتنى لسانٌ لا اسرُ بها ... من علو لا كَذِبٌ فيها ولا سَخَرُ

ولكن الفارق هنا واضح بينهما فكلاهما فحل في مرثيته لكن كعب الغنوي لم تتجاوز فحولته هذه المرثية إذ هو عامة غير فحل ومن ثم كانت الفحولة للقصيدة لا الشاعر بينما أعشى باهلة من الفحول مضافا إلى المرثية ، فأعشى باهلة أعلى مكانة من كعب وإن تساوا في المرثية وبهذا يقف الأصمعي موقف الناقد الفلسفي الفذ إذ يقف على الكليات وتظهر الجزئيات صحة رؤيته النقدية .

(٥)

يأتي موقف الأصمعي من الشعراء الإسلاميين متناغما مع روح العصر وثقافته إذ كان النقاد لغويين يضعون قواعد اللغة وشروطها في قبول الشعر واستحسانه؛فقدكان اللغويون جامدين أمام الشعر الإسلامي متشددين في قبوله ومن ثم الاحتجاج به بصرف النظر عن جودته الفنية، وظهر ذلك جليا على المستوى التطبيقي والنقدي الشفاهي ففي مجال التطبيق اختار في مجموعه(الأصمعيات) الذي يضم بين دفتيه مختارات شعرية لثلاثة عصور الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين وحوت "الأصمعيات" اثنتين وتسعين قصيدة لواحد وسبعين شاعرًا؛ أربعة وأربعين جاهليين، وستة شعراء من الإسلاميين، وأربعة عشر شاعرًا من المخضرمين، بينما ذكرت قصائد لسبعة مجهولين، لا توجد لهم ترجمة تكشف عصورهم الحقيقة وإن كان الراجح جاهليتهم، فإذا استبعدنا السبعة المجهولين صار لدينا أربعة وستون شاعرًا

الجاهليون:٤٤ بنسبة ٦٩%
المخضرمون ١٤بنسبة ٢٢%
الإسلاميون ٦ بنسبة ٩%

وتظهر لنا هذه النسب طغيان الجاهليين على رواية الشعر عند الأصمعي ومن قاربهم ويكاد يستبعد سائرهم، وكأنه لا يرى في الشعر سواهم، إذ الشعر مرتبط بجانب الشر الذي تزيده العصبية القبلية ويأفل نجمه مع ارتقاء الأخلاق التي هيعماد الدين ، وخروج الشر من الشعر يطفئ ناره كما يبرز في تلك الرواية التي يرويها ابن قتيبة فيقول "قال الأصمعي: الشعر نكدٌ بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابتٍ فحلٌ من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره، وقال مرة أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام، لحال النبي"[١]. فجعل الأخلاق مدعاة لقصور الشعر عن بلوغ الغاية لأن الدين قيد الخيال الشعري.

وإذ كان اتجاه الأصمعي معللا في شعر حسان بن ثابت إلا ان موقفه من الشعر الإسلامي وشعر الإسلاميين كان اتجاها عاما وعنوانا للنقد اللغوي في تلك المرحلة وبرز هذا واضحا في النقد الشفاهي في موقفه المشهور الذي يرويه الآمدي أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنشد الأصمعي:

هل إلى نظرةٍ إليك سبيل فيروى الصدى ويشفى الغليل؟
إن ما قل منك يكثر عندي وكثيرٌ ممن تحب القليل

فقال الأصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الأعراب، فقال: هذا والله هو الديباج الخسرواني، قال: إنهما لليلتهما، فقال: لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بينٌ عليهما"(٣٧) فقبل شعر الإعرابي بداية اعتقادا منه أنه صاحبه، فكان اللغويين يحتجون بكلام الأعراب في تلك المرحلة فضلا عن شعرهم لأنه وكان اللغويون يعاملون الأعراب منزلة الجاهليين في اللغة، فكان قبولهم تمييزا لهم عن غيرهم من الناس في تلك المرحلة، ولكنهم يرفضون شعر غيرهم من الإسلاميين حتى لو تحققت فيهم شروط الاستشهاد اللغوي الزمانية والمكانية والأخلاقية، ولذلك ناقش الأصمعي مسألة الحجة في اللغة عند الشعراء فرفض شعر الكميت وهو من شعراء عصر الاحتجاج لأنه من المولدين وكذلك الطرماح وقبل شعر ذي الرمة لأنه بدوي فقال: الكميت بن زيد ليس

[١] – ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج١/ ٢٩٦

بحجة لأنه مولد وكذلك الطرماح .. قال: وذو الرمة حجة، لأنه بدوي، ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب، ثم قال: إلا واحدة التي تشبه شعر العرب، وهي التي يقول فيها:

والباب دون أبي غسّانَ مسدودُ[٣٨]،

ولم يأت حديثه عنهم من جانب فني وإنما تحدث بوصفه لغويًا جامعًا للغة العربية فجاء رفضه للفرزدق لنسبه وقبل شعر ذي الرمة لغة ورفضه شعرا إذ لا يشبه شعر العرب وهو كلام فيه نظر كبير فأنت هنا تتحدث عن الشعر وجودته، وهل للشاعر شعر جيد كثير يضعه في مرتبة الفحول أم لا؟ فيكون حكمك هنا شعريًا بصرف النظر عن الجانب التاريخي اللغوي والاتجاه الأخلاقي، حتى أنه حكم لقصيدة واحدة بأنها تشبه شعر العرب ولم يقل جيدة أي أنها جاءت على سنة العرب في قول الشعر، وهو كثيرًا ما ينحو هذا المنحى في نقده " قال أبو حاتم: وسألت الأصمعي عن القُحَيف العامري. الذي قال في النساء، قال: ليس بفصيح ولا حجة.

وسألته عن زياد الأعجم، فقال: حجة لم يتعلق عليه بلحن، وكنيته أبو أمامة.

قلت: فأخبرني عن عبد بني الحسحاس، قال: هو فصيح، وهو زنجي أسود" فالحديث عن فحولة الشعر والغالب فيه يقول (فحلا: أو ليس بفحل) أما أن يتجاوزه للحديث عن فصاحته يخرج بنا عن سياق الحديث النقدي إذ فصاحة اللغة شرط رئيس مفهوم ضمنا في فحولة الشعر فكيف يكون الشاعر فحلا وهو غير فصيح لغة، فهو في هذا الحديث خرج من سياق النقد الفني إلى حديث اللغوي متجاهلا النقد ومنحيه جانيا .

يأتي موقفه من الشعراء الإسلاميين متسقا مع ثقافته اللغوية فقد رفض الحديث عنهم خاصة جرير والأخطل والفرزدق وإن ألمح إلى مكانتهم فعندما سئل عنهم قال: "قلت: فجرير والفرزدق والأخطل؟ قال: هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئا لأنهم إسلاميون.. فجعل التاريخ وحده منهجا نقديا لمكانة الشاعر وقيمته النقدية وإن غلبته نزعته النقدية الفنية فصرح بمكانتهم العالية في الشعر مفصحا عن سر تأخيره لهم وهو تأخرهم تاريخيا.

و كثيرا ما تهزمه نزعته النقدية الفنية وتتغلب على لغويته فقد كان يتجاهل منهجه التاريخي ، و يتحدث عن عدد من الإسلاميين منهم عمر بن أبي ربيعة ، ونقل عن أبي عمرو بن العلاء رأيه في الأخطل فقال: قال: أبو عمرو بن العلاء كان يفضله، سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: لو أدرك الأخطل من الجاهلية يوما واحدا ما

قدمت عليه جاهليا ولا إسلاميا، ثم قال الأصمعي: أنشدت أبا عمرو بن العلاء شعرا فقال: ما يطيق هذا من الإسلاميين أحد ولا الأخطل"

ومع تفضيله للأخطل في الإسلاميين أكثر من مرة في رسالته بعدان رفض الحديث عامة فقد ذكر أن أشعر من ذكر النساء هو عمر بن ربيعة "حدثني الأصمعي قال: ذهب أمية بن أبي الصلت في الشعر بعامة ذكر الآخرة، وذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر النساء"[٣٩]. فهذا حكم عام أصدره الأصمعي في الفحولة من حيث الغرض الشعري متجاوزا فيه المنحى التاريخي الذي اعتاده في تفضيل الجاهليين يمكن أن يوضع بجوار طفيل في الخيل من حيث الفحولة وبلوغ الغاية في نعت من النعوت .

ويبدو أن إعجابه بشعر عمر بن أبي ربيعة قد جعله يتجاوز الشرط التاريخي في جانب اللغة فحكم له بالحجة في اللغة محتجا برأي أبي عمر بن العلاء " قال: وعمر بن أبي ربيعة مولد، وهو حجة، سمعت أبا عمرو بن العلاء يحتج بشعره ويقول: هو حجة.

خاتمة

من خلال استعراض الرسالة تبين أن سيطرة البعد الثقافي عليها شديدة الوضوح بداية من تلك المقارنة التي عقدها بين الفحل والحقاق في إسقاط واضح لهذه الثقافة التي يمثل فيها الفحل الوجود الفعلي للذكورة الوجودية وقيمتها في حياة البداوة العربية وانعكاس ذلك في الشعر.

كادت الرسالة تخلو من ذكر النساء إلا النذر اليسير وفي هذا تثبيت لسيطرة البنية الذكورية على الحياة الثقافية، وكان الاتهام بالنفي عن الذكورية والأنثوية نفي للشعر بما يعني أن الشعر معادل موضوعي للحياة في البادية.

لم تدون الرسالة في فترة واحدة وإنما سجلت على مدار سنوات بعيدة من أقوال الأصمعي التي نقلها عنه أبو حاتم، ولذلك يجد المطالع لها وجود اختلافات فيها قد تصل إلى التباين الواضح نتاج التطوري الفكري والثقافي في عقلية الأصمعي.

كان للبعدين التاريخ والمكاني الأثر الواضح في آراء الأصمعي وتصنيفه الشعراء ففضل الجاهليين على غيرهم ومنح اهل البادية الأفضلية في الرواية عن اهل الحضر الذي كان يتجنب الحديث عنهم وإن تحققت فيهم الشروط اللغوية.

ميز الأصمعي الفحولة عند الشعراء ولم يجعلهم في مقياس واحد لما لهم من سمات تفردوا بها فتجعل واحدا فحلا في قصيدة وآخر يحتاج إلى قصيدتين وغيرهما يلزمه عشرون قصيدة.

الهوامش:

[1] – قال عنه الصفدي في الوافي: ج١٩ /١٢٦ : (الْأَصْمَعِي):عبد الْملك بن قريب بن عبد الْملك بن عَليّ بن أصمع بن مظهر بن عبد شمس الْأَصْمَعِي الْبَصْرِيّ صَاحب اللُّغَة كَانَ إِمَام زَمَانه فِي اللُّغَة روى عَن أبي عَمْرو بن الْعَلَاء وقرة بن خَالِد ومسعر بن كدام وَابْن عون وَنَافِع ابْن أبي نعيم وَسليمَان التَّيْمِيّ وَشعْبَة وبكار بن عبد الْعَزِيز ابْن أبي بكرَة وَحَمَّاد بن سَلمَة وَسَلَمَة بن بِلَال وَعمر ابْن أبي زَائِدَة وَخلق قَالَ عمر بن شبة سمعته يَقُول حفظت ستَّة عشر ألف أرجوزة وَقَالَ الشَّافِعِي مَا عبر أحد عَن الْعَرَب بِمثل عبارَة الْأَصْمَعِي وَقَالَ ابْن معِين لم يكن ممَّن يكذب وَكَانَ من أعلم النَّاس فِي فنه، وقَالَ أَبُو دَاوُد صَدُوق وَكَانَ يَتَّقِي أَن يُفَسر حَدِيث رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم كَمَا يَتَّقِي أَن يُفَسر الْقُرْآن .

[2] – عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافي العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

[3] استخدم الجمحي هذا المصطلح عنوانا لكتابه وإن خالفه في مراتب بعض الشعراء، فقد عد الجمحي عمرو بن كلثوم في الطبقة السادسة من الشعراء الجاهليين وعدي بن زيد في الطبقة السابعة من الإسلاميين ولم يعدهم الأصمعي من الفحول بل إن الجمحي وضع الراعي النميري في الطبقة الأولى من الإسلاميين بينما لم يعده الأصمعي فحلا.

[4] – الأصفهاني: الأغاني ج١٠/ ٣٦٧ –٣٦٨.

[5] – الأغاني ج٢١ /٢٠٦.

[6] (١) الأصمعي: فحولة الشعراء، تحقيق/ ش تورَّي، دار الكتاب الجديد ١٩٧١م، ص: ٩.

[7] – ابن منظور: لسان العرب ١١/ ٥١٧ –٥١٨

[8] – والحِقُّ مِنْ أَوْلَادِ الإِبل: الَّذِي بَلَغَ أَنْ يُرْكب ويُحمل عَلَيْهِ ويَضْرِب، يَعْنِي أَنْ يَضْرِبَ الناقةَ، بيِّنُ الإِحقاق والاسْتحقاق، وقِيلَ: إِذَا بَلَغَتْ أُمُّه أَوَانَ الحَمْل مِنَ الْعَامِ المُقْبِل فَهُوَ حِقٌّ بيِّنُ الحِقَّة. قَالَ الأَزهري: وَيُقَالُ بَعِيرٌ حِقٌّ بيِّنُ الحِقِّ بِغَيْرِ هَاء، وقِيلَ: إِذَا بَلَغَ هُوَ وأُخته أَنْ يُحْمَل عَلَيْهِمَا ويُركبا فَهُوَ حِقٌّ؛ الْجَوْهَرِيُّ: سُمِّي حِقّاً لِاسْتِحْقَاقِه أَنْ يُحْمل عَلَيْهِ وَأَنْ يُنتفع بِهِ؛ تَقُولُ: هُوَ حِقٌّ بيِّنُ الحِقَّة، وَهُوَ مَصْدَرٌ، وَقِيلَ: الحِقُّ الَّذِي اسْتَكْمَلَ ثَلَاثَ سِنِينَ وَدَخَلَ فِي الرَّابِعَةِ؛ ابن منظور: لسان العرب: ج١٠/٥٤.

[9] – ابن رشيق القيرواني الأزدي (ت: ٤٦٣ هـ)العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ت: محمد محيي الدين عبد الحميد ،الناشر: دار الجيل، الطبعة: الخامسة، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م،صج١/١٩٧ –١٩٨

[10] – ابن طباطبا: مصدر سابق، ص:١٠.

[11] (*) الأبيات للربيع بن زياد بن عبد الله بن سفيان بن قارب العبسي، ضمن أبيات أوردها أبو عبيدة في النقائض أولها:

نام الخلي وما أغمض حار من سيء النبأ الجليل الساري

نقلا عن المحقق، ص:٣٧–٣٨.

[12] – ابن طباطبا: مصدر سابق، ص:٣٧–٣٨.

[13] – ابن منظور: لسان العرب ج١١/٥١٦.

[14] – خالف الجمحي الأصمعي في عدي إذ عده الجمحي من الفحول ووضعه في الطبقة السابعة من الشعراء الإسلاميين وتحدث عنه وقدم له نماذج من شعره.

[15] – الجمحي: طبقات فحول الشعراء: ج١/ ١٤٠

[16]– ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ج١/ ٢٢٤. وانظر الأصفهاني: الأغاني ج٢/ ٨٩.

[17] – اللسان ج١١/٣٥٠

[18] – ابن قتيبة: الشعر والشعراء: ج٢/٢٣٤

[١٨] – السابق

[١٩] – المروة حجارة بيض يقدح منها النار، والمروة واحد المرو

[٢٠] – سورة الحاقة الآيتان :٢٨– ٢٩. ابن قتيبة :الشعر والشعراء١/٥٣١

[٢١] – استخدم علي بن ظافر هذا المصطلح في تعليقه على أبيات مؤيد الدين الطغرائي المنتهية بهاء السكت. انظر علي بن ظافر: غرائب التنبيهات :٤٥.

[٢٢] – الأصمعي: فحولة الشعر، ص:١٩.

[٢٣] – والتر وانج: الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة، ع١٨٢، فبراير ١٩٩٤م، ص: ٩٨.

[٢٤] – الإمام أبو حاتم السجستاني سهل بن محمد بن عثمان، البصري النحوي المقرئ صاحب المصنفات؛ أخذ عن أبي عبيدة وأبي زيد الأنصاري والأصمعي ووهب بن جرير ويزيد بن هارون وأبي عامر العقدي، وقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي، وحمل الناس عنه القرآن والحديث والعربية وروى عنه أبو داود والنسائي والبزار في مسنده، وكان جماعة للكتب يتجر فيها، وله اليد الطولي في اللغة والشعر والعروض والمعمى، ولم يكن حاذقاً في النحو؛ وله: إعراب القرآن، وكتاب ما تلحن فيه العامة، والمقصور والممدود، وكتاب المقاطع والمبادي، والقراءات، والفصاحة، والوحوش، واختلاف المصاحف، وكتاب الطير، وكتاب النحلة، وكتاب القسي والنبال والسهام، وكتاب السيوف والرماح، وكتاب الدرع والترس، وكتاب الحشرات، وكتاب الزرع، وكتاب الهجاء، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الإدغام، وكتاب اللبأ واللبن والحليب، وكتاب الكرم، وكتاب الشتاء والصيف، وكتاب النحل والعسل، وكتاب الإبل، وكتاب العشب، وكتاب الخصب والقحط، وغير ذلك. وتوفي سنة خمسين ومائتين، وقيل سنة ثمان وأربعين ومائتين. الوافي بالوفيات ج٥/ ١٦٩ –١٧٠

[٢٥] – الأصمعي فحولة الشعر، ص:١٥.

[٢٦] – ابن قتيبة: الشعر والشعر ج١/ ٦٧.

[٢٧] – ابن رشيقج١/١٣٣.

[٢٨] – يقصد بيته من الوافر

أَلَيلَتَنا بِذي حُسُمٍ أَنيري إِذا أَنتِ انقَضَيتِ فَلا تَحوري

[٢٩]– الأصمعي فحولة الشعر. ص: ١٢

[٣٠] – فحولة الشعر، ص:١٠.

[٣١] – الديوان ص:٤١

[٣٢] –ديوان امرئ القيس ص:٣١، وقال قدامة بن جعفر تعليقا على البيت : خطأ من أجل أنه كان بين موضع الوقعة التي ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة جداً.

[٣٣] – يقصد بيته:[من الطويل]:

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

[٣٤] – ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص:٣٢٤– ٣٢٥.

[٣٥] فحولة الشعر، ص:١٢.

[٣٦] – يقصد قصيدته في رثاء أخيه ومطلعها

تَقولُ ابنَةَ العَبسِيِّ قَد شِبتَ بَعدَنا وَكُلُّ امرِئٍ بَعدَ الشَبابِ يَشيبُ

[٣٧] – الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، مصدر سابق، ص:٢٣–٢٤.

[٣٨] يقصد بيته من البسيط

إِن العَراقَ لِأَهلي لَم يَكُن وَطَناً وَالبابُ دونَ أَبي غَسّانَ مَسْدودُ

[٣٩] – الأصمعي: فحولة الشعر، ص: ١٨.